من حديث الذكريات عن الجانب الإنساني في حياة فارس القلم

الأستاذ الدكتور / محمد رجب البيومي

الأستاذ الدكتور/ الوصيف هلال الوصيف

الأستاذ المتفرغ بقسم البلاغة والنقد

في كلية اللغة العربية بالمنصورة

وعميد الكلية الأسبق

بسم الله الرحمن الرحيم

من حديث الذكريات عن الجانب الإنساني في حياة فارس القلم

الأستاذ الدكتور / محمد رجب البيومي

حين أمد بصري لأسترجع أيامي وذكرياتي مع تلك القامة الرفيعة التي يندر أن تتكرر قامة فارس القلم ، وأمير البيان أستاذي المغفور له بإذن الله تعالى علّامة العصر الأستاذ الدكتور / محمد رجب البيومي أدرك عن يقين برّد الله ثراه ، وخلد ذكراه أنه – رحمه الله – من أيّ النواحي طالعته بهرك وأدهشك ، وأخذك إلى عالم كانت العظمة أصْلا في طبعه . وكان الوقت بالنسبة له هو مجال استثماره ؛ إذ ما ذهبت إليه مرة إلا وجدته في تواضعه الجليل ، ووقاره المهيب يقرأ أو يكتب . فهو على قمة أصحاب المواهب الخارقة التي لا تتوفر كثيرا لغيره . وقد رزق ذاكرة فولاذية هذه الذاكرة الحديدية تتميز بالتألق ، والقوة والسَّعَة فأستاذنا – غفر الله له – يقرأ فيعي ويحفظ ثم لا ينسى مما وعى حرفا ، ولا كلمة . فإذا ما سُئل عَنْ نادرة ، أو مسألة ، أو بيت شعر إلا انطلق في سرعة ضوء البرق مجيبا وكأنه فرغ من دراسته للحظة واحدة ويجيب في إفاضة ، وتدفق ، وإبهار ويفتّح مجالات للقول بينها وبين السؤال أدنى ملابسة ويزاوج في حديثه بين البلاغة والشعر ، ويعاقب بين الإقناع والإمتاع ويتنقّل بمُخاطبه في أجواء متعدّدة مما يجعله يشعر أنه أمام بحر يأخذ حسَّه بروعة المجهول ، ويعلّمه ما لم يكن يعلم . مما يدرك معه أن نبوغه ليس قوة في ملكة على حساب ملكات وإنما النبوغ قائم على أنه موسوعة ثقافية وأن صاحبها لو

أراد أن يتخصّص في فن واحد لما استطاع فهو مؤرخ ، مفكـــر عـــالم ، راوية، ناقد ، أديب فيلسوف ، حكيم ، وهو شاعر يملك من رقة الشعور ، ومن رهافة الحس ، ومن بلاغة الكلمة ما يحفظ للبيان العـــربي قـــدره المأثور الذي يتطاول به على القرون ، ويزهو به على الزمن .

ومن المثير للدهش أنك حين تبصره وهو يتحدث تراه مزيجا عجيبا من الجاذبية التي تبعث السحر الذي يشيع في العين ، ويشـــع في الـــنفس . رالرجل على بساطته ، وبراعة فكرته وسلامة نقده ، وملاحـــة نكتتـــه ، وطلاوة خبره ، فتنة الفنان ، وجنة المفكر .

كان من يمن طالعي أن والدي – سقى الله قبره – قد دفع إليّ ببعض المجلات بعد أن أنهيت دراستي بالصف الثاني الابتدائي بمعهـــد المنصـــورة الديني وفيها مقالات للأستاذ الدكتور / محمد رجب البيومي – رحمه الله – ونصحني بقراءتها حتى أستعين بتلك القراءة على تهذيب طبعي ، وتقويم لساني فأقبلت عليها إقبال المنهوم المحروم وامـــتلأ صـــدري بالإعجـــاب بمقالات الدكتور رجب ؛ لأنني أحسست شبها بحسب إدراكي يومها بين لغته ولغة المنفلوطي؛ إذ كان أبي رحمه الله قدّم إليّ من قبل كتاب العبرات وكانت فيه بعض الصفحات التالفة فأكملها بخط يده وما تزال النســـخة لديّ حتى الآن، ومع بدء العام الدراسي وقد انتقلت إلى الصف الثالـــث الابتدائي وكانت مكتبة المعهد الديني بالمنصورة تفتح أبوابها مســـاء لمـــن يطالع من الطلاب وكان يقوم بالإشراف عليها شيخي وأستاذي الشـــيخ عبد المنعم أبو العطا عطية ولي في قلبه مكان طيب إذ كنت من المترددين

دوْما على المكتبة ، ومن الطلاب الذين يُدِّرس لهم وينالون تقديره سألني عن مطالعاتي في الصيف فأخبرته بما قرأته وبمن قرأت لهم وأبديت إعجابي الشديد بمقالات الدكتور رجب وقلت له : إنه يعمل مدرسا بإحدى مدارس المنصورة . فسألني وهل تحرص على أن تراه ؟ فكانت إجابتي بما يفيد وهل يطمع مثلي في أكثر من هذا ؟ .

فقال لي : سآخذك إليه وكان أول لقاء جمعني به بمدرسة ابن لقمان بالمنصورة إذ كانا رحمهما الله صديقين ومن قريتين متجاورتين (البصراط والكفر الجديد) بالمنزلة دقهلية حين التقيت الدكتور رجب أخبرته بما قرأته له فسُرّ سروراً كبيرا بعد أن قدمني له أستاذي الشيخ عبد المنعم بكلمة طيبة وكان – رحمه الله – لبقاً ذكياً ومنذ هذا التاريخ صرت ألاحق الدكتور فأقرأ مقالاته وأحضر ندواته ومحاضراته وكان صدره يتسع لمشاكساتي حين كنت أصحبه وهو يقدم للندوات في مسرح المنصورة وكان يومها النجم اللامع الذي لا ينازعه في الساحة غيره والذي لا تسقط من يده الراية أبداً وظل يتعهدني بتوجيهه ورعايته إذ إني من عشاق الكلمة المُرِنَّة أطرب للإيقاع ، وأهتز للنغم . الكلمة المُصَوِّرَة التي تتخلق الصورة فيها من الشكل والمضمون معاً على نحو يروق ويعجب وأستاذنا – غفر الله له – كاتب مطبوع يستهويك بسحر بيانه ، وحلو حديثه وغزارة لغته وخصوبتها تلك اللغة التي تتفوق بالسلاسة العذبة ، مع رقة التصوير .

لذا تأخذك بدون سأم ولا ملل ، فإذا ما بدأت معه القراءة في الصفحة الأولى من كتاب فإنك لا تتركه حتى تنتهي معه إلى الصفحة الأخيرة دون انقطاع .

إن اللغة لا تخذل أستاذنا أبدا بل تسعفه ببيانها المتَجَدِّد دوْماً حتى حين يعرض المُشْكِل والملْبس من القضايا والتي تقبل الأخذ والرد ، والقبول والرفض . إذ يعبِّر عنها على نحو يملأ عقلك بالتفكير الرفيع ، معتمداً على الطبع المرْسَل ، وتراك وأنت تبصره مثيرا مدهشاً وذلك حين يحيي خمود الفكرة بالعاطفة المتوهجة ، وحين يحيي صور الحقيقة بالخيال المحلق ، وحين يسوق الأدلة والعلل لما يقتنع به . ذلك أنه جدليٌّ دامغ الحجة ، ساطع البرهان . بحيث يجد القارئ نفسه مأخوذا من هذا الأسلوب المنطقي المضيء المشرق الذي يلجم ويفحم في إقناع وإمتاع .

لم تنقطع صلتي بالدكتور رجب – رحمه الله – وإن حالت ظروف إلى عدم لقائه بصورة منتظمة بعد ترقيته ونقله إلى الفيوم ليعمل في مدرسة المعلمات ، لكن المتابعة الفكرية لنشاطه الأدبي والعلمي كانت موصولة لم تغب . ومرت الأيام .

وبعد وفاة زوجته – رحمها الله – وعودته من السعودية وإقامته بمدينة المنصورة خُلطت حياهُ بعضنا ببعض وكنا نتخذ سامرنا كل يوم في شقتي بالمنصورة، وكان حين يدخل الشقة يتوجه في سرعة إلى المكتبة ويأتي بمجموعة من الكتب ويبدأ يقرأ ؛ لأنه مؤمن بأن القراءة هي التي تخلق

الكاتب والكتاب ؛ ولأنها ضرورة للروح كما أن الرغيف ضرورة للجسد ؛ ولأن القراءة هي التي تخصب حدائق المعرفة فتثمر في كل نفس، وتزهر في كل مكان وهذه العلاقة هي التي أثمرت بعد سنوات توثيقها بزواج ابنته الكبرى الأستاذة (رباب) بشقيق زوجتي الأستاذ (توفيق) .

على أن الله سبحانه قد شاء أن أمر بتجربة كابدت فيها لمدة غير قصيرة محنة المرض كان الأستاذ الدكتور محمد رجب إلى جواري فيها مبديا بي الرحمة إلى أبعد حد يمكن أن يتصور وتكشفت لي جوانب العظمة في إنسانيته التي تنطق بإبهاره وإدهاشه وهو يرتجف ، ويرتعد ولا يغمض له جفن ، ولا يهنأ له مرقد حين يسمع صوتا لا ينقطع من قطة وراء الجدران وهي تصرخ داخل محل مغلق وكأنها تستنجد بمن يفك أسرها ، ويحرّرها من سجنها ، ويطلق قيدها . إن هذا النّواح الذي ينبعث مستغيثا من حنجرة هذا الحيوان الضعيف . يحرك مشاعر وعواطف هذا الإنسان الرقيق العطوف فتزداد مواجعه، وتثار دفائن الهم والحزن في صدره ويتحول عويل القطة لديه إلى شيء آخر إذ يتمثّل صورة الضعيف الذي يقهر فيخْضَع ، ويُغلب فيُسْتَذَل ، ويُسْتَعْبد فيستسْلم ، ويُؤْسر فيُسْترق ويبدأ أستاذنا في التقدم نحو الحل . لو أن القطة الأسيرة محبوسة في بيت لذهب إليه وأطلق سراحها وبذلك تندمل جراحات قلب هذا الإنسان العظيم التي أحدثها هذا العويل ولكن ماذا يفعل والمحل مغلق ولا يعرف أين يسكن صاحبه ؟.

لقد توجه لاستدعاء شرطة النجدة لتحرير القطة من محبسها وجاءت وحررتها هكذا حكت لي ابنته (رباب) وأنا أتساءل كم من أناس سمعوا بكاء القطة المتواصل ليلا وعويلها كما سمعها أستاذنا ؟ لماذا أقضت مضجعه ، وأذهبت النوم من عينه هو دون سواه ؟ لماذا لم تثر في غيْره ما أثارته فيه من مشاعر وعواطف ومواجع؟.

لسبب واحد ؛ لأنه ليس كغيره ولأن ما بقلبه الكبير أثر من المحبة والرحمة والإنسانية تلك الرحمة التي أبْصرْته يوما وكنا نسير معاً في الشارع وهو يرتجف ويكاد يبكي حين يرى سائق عربة يجرها حصان والعربة عليها حمل ثقيل والحصان ينوء بجر العربة والضربات بالكرباج تنهال من يد السائق على الحصان بلا رحمة ولا حساب وهو ينظر إلى المشهد الأليم ويوجه حديثه إلى سائق العربة في عنف أراه منه لأول مرة من لا يرحم لا يُرحم .

إن الحديث عن المآثر الإنسانية عند أستاذنا إنما يحض على احتذائها وتقديرها وهو – رحمه الله– لو أراد زهرة الحياة الدنيا لعرض ضميره للبيع ، وقلمه للإيجار لكنه وهو يكتب بدمع العين ، ودم القلب حافظ عليه وصانه وبقي شامخا فما تودّد إلى ذي سلطان أو جاه إذ هو في عزته وباستعداده الفطري أقرب إلى الحق المطلق ، والخير المحض ، والجمال الكامل ، فهو صاحب رسالة ؛ لذا كان يسير دائما في طريق يوجه قلمه

الصوال فيه كثيرا للحديث عن الشخصيات التي تركت وابتعد عن دراستها من يوجهون أقلامهم للحديث والكتابة عن أصحاب الحظوة والمشاهير ومن أراد أن يتأكد من صدق ما أقول فليرجع إلى كتاباته التي تعددت وتنوعت وفيها إنصاف لكثير من المظلومين ، كما أنه شقّ الصَّدَف عن الكثير من اللآلئ والجواهر التي كانت محجوبة مستورة وراءه وقدّمها لتُرى في صورتها الحقيقية متألقة لامعة ولولا قلمه السيال لما انتشرت أضواؤها السحرية بعد أن أزاح عنها ما كان يغطيها من ظلام.

لقد سخّر أستاذنا رحمه الله قدراته الإبداعية وهي في مثل عمق البحر وسَعة المحيط فيما يؤمن به من العلم والأدب وآثر بتواضعه الذي لا تجد له نظيرا أن يعيش في الظل بعيدا عن الأضواء وكان يؤلمه ويوجعه أن يرى بلاده التي يعشقها تمشى عرجاء في طريق التقدم ويرى من الحتم للتقدم أن تتظاهر وتتناصر وتتعاون جميع الملكات والقوى والطاقات من أجل إعداد الأمة لحمل نصيبها من أمانة الحياة ، ورسالة الحضارة . وأولى خطوات الإعداد تتمثل في دفع الجهل ، وطرد الفقر ، ومعالجة المرض ؛ لأن كل تلك الآفات التي تسحق وتمحق ترجع إلى كل تلك الآفات مجتمعة أو إلى أي منها مع غياب الإرادة في تحقيق ذلك ، وشيوع روح النفاق ، والملق والأثرة ، والانتفاع .

إن مما يُفْجع ويحزن بل مما يُرْمض الأحشاء ويذيب الجوانح أن يتلفت الإنسان ذو الضمير الحي وصاحب العقل الرشيد فيرى منـــابر الثقافـــة ، ومنارات التوجيه والإعلام يسيطر عليها ناقصو الكفاية وعاجزو القدرة ممن نامت ضمائرهم من اليسار المتأمرك بما مُكِّنوا منه من سطوة ونفـــوذ تساق جوائز الدولة التقديرية من خلالهم في تدبير وإفك واحتيال إلى من يستحق ومن لا يستحق عندها يقف متحسراً وهو يتساءل كيف تحجـــب هذه الجائزة عن هذا الفارس المجلِّي وينالها نكرات من الطّـــغَام ؟

نسأل الله ألا تعود تلك الأيام التي غشّاها السواد . ويكفي أســـتاذنا العالم الأديب أنه وإن كان لم ينل بعض ما يستحق فإن ما عنـــد الله خـــير وأبقى كما أنه وإذا كان قد انتقل بجسده من الأرض فإن آثاره وهـــي في كل مكان من الأرض العربية والإسلامية تبقى حية مضـــيئة مشـــرقة في نفوس الأجيال ، وطلاب العلم ذلك أنها نور يضيء ويسطع وشمس تشرق وتتجدد . وحسبه أن الجوائز التي حصدها عن جدارة واســـتحقاق إنمـــا جاءت من هيئة علمية موقرة إذ هي خمس جوائز من مجمع اللغة العربيـــة بالقاهرة آخرها عام ١٩٧٢ وواحدة من وزارة التربية والتعلـــيم ســـنة ١٩٥٨ عن المسرحية الشعرية (ملك غسان) وجائزة شوقي من المجلـــس الأعلى للفنون والآداب بمصر سنة ١٩٦١ عن مســـرحيته الشـــعرية (انتصار) .

إن الحديث عن الجانب الإنساني عند أستاذنا حديث يتسع ولا ينتهي

إذ إن الإنسانية بكل ما فيها من المعاني النبيلة تتجسد في شخصه فهو حان عطوف لا يعرف القسوة تؤلمه القطيعة ، متسامح إلى أبعد ما يمكن أن يتصور وفيّ لمن يعرفهم ولدَىّ في هذا قصص وحكايات تعصف بقلبه أوجاع الأرامل واليتامى والمساكين يحب معالي الأمور ومن إنسانياته أنه لا يمنع توجيهه عن أحد فهو يأخذ بيد الأدنى ليعلو ويرتفع ويثبّت قدم الأعلى ليستمسك وليبقى ويستمر .

لقد كان رحمه الله نسيما رخيا يهب على أرواح من يطلب المعونة وكان يضعضعه الألم ويرْفضُّ عنه الصبر ، ويتملكه الجزع حين تتناهى إلى مسامعه أحاديث البؤس وحوادث أهله خصوصا من كان يعرف أسرار بيوهم ممن ركبهم الهم ، وأقعدهم المرض وتفجرت عليهم المصائب إذ يكاد يبكي لأناهم ووجائعهم .

وأذكر في هذا قصصا وحكايات تنبئ عن قلبه الرحيم إذ تراه يتخذ من علاقته بذوي الشأن سبيلا إلى فتح أبواب الرزق المغلّقة في وجوه الضعفاء المسحوقين الذين هدهم المرض وذلك بمحاولة تعيين أرملة فقدت عائلها وخلّف لها صبية صغارا أو زوجة زوْجها مُقْعَد مصاب بالشلل وعن هذا الطريق يسر باب الرزق لعدد من العاملات في المعاهد الابتدائية الأزهرية .

هذا وإن عينه لتفيض بالدمع حين يجد من يشكو الفاقة ولذا كان يسعى ما وسعه السعي لدى ذوي المروءة من أهل الخير ممن يطمئن إلى نبلهم يطلب معونتهم لوضعها في يد هؤلاء الفقراء من طالبي الإسعاف والعون.

هذا إنسان عظيم ، ورجل قد ملأت الرحمة قلبه فلم يعد فيه مكان لشيء آخر تحكي ابنته الكبرى (رباب) أنها وهي طفلة تعرضت لأزمة صحية نُصحت من الأطباء على أثرها أن تخرج إلى فضاء الطبيعة الواسع قبل أن يتيقظ النوم من رقادهم مع آذان الفجر لتنسم الهواء النقي ملء رئتيها فكان أبوها – رحمه الله – يحرص على أن يمسك بيدها في حنان ورفق ويمضي بها بعيدا إلى حديقة مطلولة النبات تضوع بالنسيم الأريج انتثرت على معظم أرضها ألوان من الزهر الجميل وانتظمت على جنباتها أنواع من شجر الصفصاف والكافور والنارنج ويضع في يدها زهرات متنوعة الشكول والألوان حتى يزيح عن وجهها كآبة المرض ، ويخلع عليه شيئا من الرضى والسعادة . وتحكي أنه كان يسير معها متئد الخُطى ، مُرْسَل النفس ، مرهف الحس . فإذا أذّن الفجر صلى على الأرض وكان من ديدنه أن يقف أمام كل شجرة يتأملها ويحييها وحتى يسري عنها ويقطع الملل كان يحكي لها من القصص ما يذهب عنها الوحشة ، ويدخل على قلبها شيئا من الأنس ، فالطفل بغريزته الفطرية يعشق القصص ، وتأسر قلبه الحكايات .

وذات مرة حكى لها قصة الوفاء النادر من كلب لصاحبه التاجر إذ كان في مكان ضاعت فيه حافظة نقوده ، فبحث عليها طويلا وجدّ عنها في البحث فلما لم يجدها حزن لذلك وتألم وترك المكان مُغْضَبا ومضى في طريقه بعيدا ليستريح وهو متأثر . وكان الكلب الوفي قد عثر على الحافظة وأراد أن يبلغ رسالة إلى صاحبه بأن حافظة النقود لديه حين

لاحظ تَجَهُّمَه وحزنه وكانت وسيلته إلى ذلك النباح فظل ينبح وينبح وينبح ولم يفطن صاحب الكلب إلى السر وراء نباح كلبه غير المعهود وضاق به وأفرغ في رأسه رصاصة أدت إلى مصرعه ، وأنهت حياته وحين توجّه إلى حيث يرقد الكلب مجند لا صريعا أبصر حافظة نقوده إلى جواره وكأنما كان ينبح ليُلحّ بهذا النباح على تبليغه بهذا الأمر ساعتها عض أنامله من الحزن والألم وأدرك المدى البعيد لفضيلة الوفاء التي تمثلت لدى الكلب الذي يجب أن يتعلم منها الإنسان ذلك أن الوفاء لا ينفصل عن الحب الذي من نفحاته توجد الرحمة التي تعمل عملها في إيجابية قويمة حين تحرر صاحبها من القسوة وتتعقبها في كل مجالاتها لتغرس قيم العدل ، والحق والخير ، والجمال تحكي (رباب) ما إن فرغ أبوها من حكايته التي قصّها عن هذا الكلب الوفي مع صاحبه حتى اختنق وجهها اختناق المُخْتَنَق واختنقت بالبكاء وعلا نشيجها بعد أن بلغ بها التأثر مدًى لم تستطع معه إلا أن تأسى وتحزن لمصرع الوفاء على يد هذا الذئب بتلك الصورة الوحشية لحظتها احتضنها أبوها وضمها إلى صدره وقبلها في عطف وود ورحمة وحنان واعتذر لها في أسف إذ قال لها إنه جانبه الصواب حين لم يختر القصة الملائمة للسن المناسب ، ولما وصل إلى البيت كتب مقالا ذائعاً نشرته مجلة الأديب اللبنانية الجهيرة تحت عنوان " رباب وقصص الأطفال".

وفيه ينصح الآباء والأمهات بأن يختاروا لأبنائهم من القصص

والحكايات ما تتسع له مداركهم ، وما يناسب سنهم وأعمارهم وهـــذا لون من ألوان العظمة التي تتزاحم في شخصية أستاذنا تكشف عن طبيعة المشاعر والأحاسيس التي كان قلبه الكبير وعاء لها .

لما انتقلت زوجة الأستاذ الدكتور – رحمها الله – وكانت شابة خلَّفت له وحشة في القلب وظلمة في العين ، وجذوة في الصدر ، ولوعة حارقـــة في الفؤاد . إذ كانت ضربة مصمية جاءت على غير توقع تصدعت لهـــا قوته ، وتضعضع عزمه ، وشُده من هول المصاب فلم يعد يرى في هـــذه الحياة الدنيا إلا ظلاما ووحشة وانخلع قلبه الملتاع لفقـــدها ، واســـتنجد بالدمع يبرّد به وقدة اللوعة ولكنه يستعصي عليه ويتأبى ولا يستجيب .

ومع أن الموت حق لكنه حين يأتي يكون إنكارنا له كأنه لم يكتب علينا " وإنا لله وإنا إليه راجعون ".

انتقلت زوجة أستاذنا الدكتور إلى رحمة الله تعالى وتركت له ولدا هو الآن الدكتور حسام وكان عمره خمسة عشر عاما وســـتا مـــن البنـــات صغراهن عندها سنتان وخلّفت له ولَهًـــا لا يخلق أبدا سطره بصبيب الدم في قصائد نائحة أو دعها ذوب نفسه ، وبُرَح آلامه وأوجاعه . في رثـــاء شاج ، وشدو مؤثر حزين . يذيب الصخر ، ويحطم الجلمود . بما فاضت به من أحاسيس كانت تعتلج في قرارات فؤاده ، وبما تتدفق به من خواطر كانت تترقرق في أطواء قلبه وبما تتماوج به من مشاعر كانت تضطرم في حنايا ضلوعه ، وكان يذكي كل هذا في داخل نفسه ويشعلها نظـــرات أطفاله الصغار وكأنهم ببحثهم عن أمهم وتفتيشهم عنها ، وندائهم عليها

يتساءلون لماذا هذا الرحيل المفاجئ ؟

يقولون ماما كلما عن مشكل وأولى بهم أن يسكتوا لو تعقلوا
يقولون ماما ما الذي أنا صانع ؟ ومن دون (ماماهم) تراب وجندل
يصيحون بي هلا ذهبت تعيدها ؟ كأني برد الراحلين موكل ؟

وكانت مجلة الأديب اللبنانية هي المنبر الذي نشر من فوقه قصائده التي تجاوزت العشرين على مدى عامين متتابعين ومجلة الأديب قد استثمرها شعراء المهجر وكتابه للنشر بها حين توقفت مجلاتهم العربية في أماكن هجرتهم وهي تنشر لجميع الكتاب شرقا وغرباً على نحو متتابع فهي مجلة عالمية .

كان الدكتور يتابع فيها نشر بواكيه التي أوقدت في كل صدر حُرْقة ، وأقامت في كل قلب مناحة ، وبعثت في كل عين دمعة ، وهذه القصائد هي التي جمعها فيما بعد في ديوان (حصاد الدمع) في رثاء زوجته رحمها الله .

كانت مجلة الأديب التي تذيع تلك الجذوات المشبوبة على حد تعبيره – رحمه الله –والتي لم يتمكن مرور الوقت من أن يطفئ قليلا أوارها المشتعل تتخطى حدود الوطن العربي وكانت تشرِّق وتغرِّب وكان من بين المتابعين لها أميرة إيرانية تعيش نفس المأساة إذْ فقدت زوجها فجأة وعلى غير توقع وترك لها عددا من البنين والبنات في ذات السن تقريبا وأصبحت حياته معها ومع أطفاله ذكرى خلّفت وراءها عيونا مقروحة ،

وقلوبا محطمة ، وآمالا مهيضة وحين كان البريد يحمل إليها مجلة الأديب كان أول ما تطالعه فيها هو رثاء الدكتور محمد رجب لزوجته بعد أن وقع نظرها على قصائد له في هذا الغرض من قبل إذ كانت تجد في بواكيه رثاء لزوجها فتأنس إليه ، وتحرص على متابعته إذ تَلْمَسُ فيه سلاماً للقلب ، ورضي للعاطفة ، وراحة للضمير ، وكان يساعد النشر المتوالي لقصائد الرثاء مع ارتقاء المستوى الفني لما ينشر ، وعدم التّذبذب بين الارتفاع والهبوط قد شجّع الأميرة على أن تراسل الأستاذ الدكتور فهي تعرف قامته وقدره وهي قد ورثت أخلاق الأميرات في الكمال ولم ترث صفاهن في النقائص والمصائب تجمع بين المصابين فإذا أضفنا إلى ذلك أنها مغرمة بمصر وبأهلها على نحو شديد ، وأنها هاضمة لفلسفة التاريخ ، ويظهر أثر ذلك حين تتنقّلُ بالحديث عن مصر ، والعرب ، والإسلام ، والشرق في يسر وسهولة إذ هي واسعة الاطلاع كما أنها عاشقة للأدب العربي وفلسفة الشرق مع إجادتها للحديث عن الروابط الثقافية ، والتاريخية ، والدينية التي تربط الفرس بالعرب وهي روابط لا يمكن أن تنفصم عراها ولا تحل عقدها ؛ لأنها جزء من الارتباط العقلي والثقافي ولا علاقة لها بنُعْرة الجنس ، ولا بسلطان السياسيين ، ولا بالخلاف المذهبي عرف هذا الأستاذ الدكتور من خلال الرسائل المتبادلة بينهما وهي رسائل كانت منارات للثقافة الأصيلة ، ومنائر للمناقشات الجادة والسياحات الفكرية ولم تكن تسبح إلا في هذا وفي أودية الشعر والأدب بما تُشْرق به من

جمال، أو تبسم به من نعيم ، أو تموج به من عطر . إذ كانت من أرجح المثقفات عقلا ، ومن أثقبهن رأيا ، ومن أوسعهن اطلاعاً ومعرفة ، ولم يكن يصرفها عن هذا ما يعرف عن حياة الأميرات داخل قصور الملك بما يتغشاها من جلال وجمال ، وبما يفيض عليها من خير تغرق فيه ، وبما يلفّها من شجر تتفيأ ظلاله . هكذا كان حديث الأستاذ الدكتور عنها .

ومضت الأيام وسبحان الله الذي يصرِّف ملكه على إرادته ، وينفّذ قانون الحياة وحده في هذا الكوكب فلا ينازعه فيه سواه ، ويطوي سطوة الجبارين بمشيئته العليا التي ليس إلى تعويقها من سبيل . فهب الشعب الإيراني ، وقامت ثورته التي أزاحت المُلك الإيراني ، وهاجرت الأميرات الإيرانيات إلى باريس ومن بين المهاجرات تلك الأميرة التي كانت تراسل أستاذنا العظيم وسبحان الله الذي يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ، فقد حاول النظام الجديد أن يتعقب النظام القديم حيث كان ليضاعف من اتهامه له بالفحش ، والنكر ، والبغي ، والختل ، والخيانة وكان جهاز مخابراته قد أوعز إليه بخبر رسائل إحدى الأميرات مع الدكتور رجب فأراد أن ينال من النظام في صورة إحدى ضحاياه .

وفي ذات عشية من عشايا آخر العام التي قامت فيه الثورة الإيرانية سنة ١٩٧٩م بدأ الاتصال بأستاذنا مع الإلحاح المتكرر والطرق المتتابع على الأبواب من جهات عديدة ومتنوعة وكلها تركز على شيء واحد

وهو الحصول على ما لدى الدكتور من رسائل تخص الأميرة ومن المثير للشجن أن من بين الساعين للحصول على تلك الرسائل كتابا وأدباء من مصر وغيرها وفي المقابل فليفرض الثمن المادي الذي يطلبه مهما كان حجمه ومقداره ، فإن الثورة جاهزة للدفع لأنها تريد أن تكشف بحسب منطقها خصومها . رفض الدكتور مجرد التفكير في هذا وحاول مرة ومرات أن يردهم في بادئ الأمر رداً جميلاً ويبين لهم أن هذه الرسائل لم تتعدَّ أن تكون سياحة فكرية ، ومناقشات تتناول أدب العرب شعره ونثره وحكمة الإسلام ، وفلسفة الشرق ، والروابط التاريخية ، والدينية بين العرب والفرس فلما لم يقتنعوا ردّ عليهم ردا عاصفا كي يتعلموا الدرس إذ أراد أن يوقظ النخوة التي تتجسد فيه في ذواتهم ، والكرامة التي يمثلها في نفوسهم ، والرجولة الكاملة التي قصرت عليه في رءوسهم ويشعرهم فوق هذا أنه صاحب قيم ومبادئ وأن المبادئ عنده لاتباع بكنوز الدنيا كلها وأن الفضيلة لا يمكن أن يقايض عليها بشيء أبدا وأن مقاومة القويّ الظالم والوقوف في وجهه منتهى الشجاعة ، أما الانكسار والتخاذل أمام الضعيف فهو غاية الحلم وليس من المروءة ولا الشهامة أن تجرّد الفارس الصوال من سلاحه ثم تطعنه وهو أعزل .

وهكذا ردهم في عنف لا يعرف اللين ولا المساومة وهذا هو نهج أستاذنا في الحياة ومذهبه فيها وفي هذا الاختبار ظهرت أصالة معدنه ،

وضرب المثل الكامل لمن يحتذي الشرف إذ بعث الكرامة الإنسانية من قبرها ووضعها منارة على الطريق لتهدي السائرين عليه إلى نهايته . وله في سيدنا رسول الله أبلغ القدوة والأسوة فلو أراد المال لكان من أكثر أهل طبقته مالا ولكن للفضيلة رجالا لا يبيعونها بأثمن شيء وأغلاه . وكذلك كان وهذا الموقف كنت شاهده بكل دقائقه والله على ما أقول شهيد .

ترى لو أنه أراد أن يتأول أو يلتمس للأمر ألف باب أكان يتعذر عليه؟ وهو صاحب قلم لا يتأبى عليه معنى ، ولا تستعصي عليه حجة على أن لكل مشكلٍ عنده حلا ، ولكل ملتبس من الأمور مخرجاً .

ولكن نفسَه الكبيرة يتضاءل أمام حجمها الكبير كل شيء ويصغر ويبقى شيء واحد في سبيله تحيا ، وعليه تحرص ، ومن أجله تقاتل وتذود أن تظل كبيرة تمحق سفاسف الأمور ، وتعلي مكارمها تضرب المثل للأجيال ، لا تمد عينيها إلى نعيم عريض ، ولا تبسط يدها إلى ثراء غير مشروع تتميز بالاستقامة والوضوح ، والطبع المسالم المتسامح . الذي لا يفتش في النوايا ، ولا يغوص في الضمائر ولا يبحث عما وراء الجُدُر ، لا تحجب معونتها عمن يستحقها ومن لا يستحقها ، لا تكاد تُبْصِرها إلا في الظل إذ تفر من الضوء فمقعدها هو الأخير في آخر صف لا تكاد تقع العين عليها وسط الزحام يحيِّرك من أستاذنا هذا الوفاء النادر حين يحيي بقلمه ذكرى إنسان لقيه مرة أو مرتين ودار بينهما حديث اقتنع بشخصه من خلاله فإذا به يسلط عليه ضوءا من شعاع فكره الغامر ، وكذلك يفعل مع غيره من أهل المروءة المظلومين ممن لم يكونوا من ذوي الحظوة

والشهرة فلم تسلط عليهم الأضواء فإذا به يجدّد ما درس من حياهم ، ويقيمهم على الطريق لتبصرهم العين على حقيقتهم التي غابت عن الكثيرين .

رحم الله الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومي الذي كما قلت عنه من قبل كان باستعداده أقرب إلى الحق المطلق ، والخير المحض ، والجمال الكامل .

الوصيف هلال الوصيف إبراهيم
أستاذ البلاغة والنقد المتفرغ
بكلية اللغة العربية بالمنصورة